الفصل الثانى

علم الاجتماع بين النظرية والمنهج

استعرضنا فى الفصل السابق من منظور تاريخى أبرز الملامح المفسرة لظهور ونشأة علم الاجتماع وقد حاولنا فى ذات الوقت أن نعرف العلم من حيث موضوعه وأغراضه النظـــرية والامبريقية ، وتأكيدا لاصالة العلم ذكرنا أنه لما كان علم الاجتماع يشتمل على معارف غزيرة من الصعوبة أن يلم شتاتها أو اذا حدث ذلك فانه يصبح علما موسوعيا غير محدد المعالم ، لذلك كان الاتجاه العام لرواد علم الاجتماع أن يكون هناك علم اجتماع عام يشتمل على قضايا العلم وأسس الدراسة ومناهج البحث وأن يكون الى جانبه فروعه المستقلة التى تهدف الى دراســة موضوع محدد مثل علم الاجتماع الصناعى أو علــم الاجتماع الحضرى ... ولا ريب فى أن هذا الاتجاه يؤكد على أصالة العــلم وموضوعيتـــه .

وفى هذا الفصل نحاول أن نلقى الضوء على الاسس النظرية لمقومات علم الاجتماع باعتبارها دعائم أصالته كعلم مستقل له منطقة نفوذه الخاصة به . وفضلا عن ذلك نشير الى بنائه المنهجى الذى يوضح أساليب معالجة قضاياه وظواهره وحقائقه ، وسوف نتناول كل ذلك فى الفقرات التالية :

(أولا) النظـــرية الســـوسـيولوجيـــة :

بادىء ذى بدء يمكن القول أن الملاحظة تمثل أساس أى علم امبريقى ذلك انه ينتج عن ملاحظة الباحث للظاهرة الخروج ببعض الاقتراحات المفسرة لطبيعة الظاهرة بحسب النسبية الزمنية والمكانية . ولكى يستفيد الباحث من ملاحظاته العلمية فانه يقوم بمقارنة ما يتوصل اليه من حقائق ، وما يثور فى ذهنه من تساؤلات ، واستفسارات ، يعمـل على تصنيفها فى مجموعات

منسقة ومترابطة ومتكاملة ، غير أنه لا يخرج من هذه الحقائق بنتائج يقينية ما لم يضعها موضع الفحص والتقييم والاختبار ولا يتسنى له ذلك الا عن طريق المعالجة الاحصائية ، فقد يستخدم معامل الارتباط فى مقارنة حقيقية أو أن يستخدم أى شكل احصائى آخر يمكن من تنظيم ملاحظاته للظاهرة بحيث تستقيم أبعادها وتنتظم فى تناسق يبدو فيه منطق التدرج فى المعرفة السوسيولوجية قد يمكن من المقارنة العلمية التى تخدم بحثه للظاهرة ٠

ويهدف الباحث من تنظيم ملاحظاته واتساقها سياق البحث وأهدافه الى الوصول الى تعميمات صادقة وهى غاية العلم الاجتماعى ، تلك التعميمات التى تساعده على التوصل الى فكرة القانون وهو ثمرة أى علم من العلوم ٠

ومن هنا نستطيع الوصول الى تعريف للنظرية : أنهـا مجموعة قضايا منسقة ومصاغة فى مصطلحات محددة ومتماسكة الأجزاء ، بحيث يساعد ذلك على التوصل الى التعميم الذى يثرى البناء المعرفى للباحث ويمكنه من الوصول الى نتائج أكثر دقة ويقينا ٠

ولكن كيف ندرس النظريات السوسيولوجية ؟ ان هذه الدراسة انما تتم طـريق تصنيف النظريات كمايرى تيماشيف Timasheff ويتطرق هذا التصنيف الى مجموعة أنماط محددة ٠

ـ اد قد تصنف النظريات السوسيولوجية فى اطار مدارس محـددة تبحث فى الوصول الى عـلاج ما لمشكلة بعينها كما هو متبع عنـد العـلاقة سوركن ٠

ـ وربما تقدم النظريات السوسيولوجية فى سياق تاريخى يظهـرها ويحدد معالمها وأبعادها ٠

ـ أو ربما تصنف النظريات بالرجوع الى المنـاطق الجغرافية التى ظهرت فيها ونشأ فيها واضعوها كما متبع عند جورفتش (١) ٠

للنظرية اذن تبدو فى علم الاجتماع كما فى غيره من العلوم المحك العلمى

---

(١) Nicholas Timasheff : Sociological Theory its Nature and growth, Random House, New York second Printing, 1951 p. 9.

الذى يفسر لنا كافة الحقـــائق الملاحظة عن طريق أساليب ووسائل عامـة ورئيسية بواسطتها يمكن الوصول الى نتائج ملموسة وواقعية ، وفوق ذلك فان التأصيل النظرى يتسم بدرجة من المنطق يساعدنا على اختبار الفروض التى نضعها من أجل تفسير كافة قضايا البحث وأبعاده ٠

وان مظاهر التحقيق الاجتماعى يكون هاما لكونه يشتمل على ملاحظات عامة قائمة على الدراسة وتقودنا الى الغاية من النظرية ، بل وأحيـــانا الى معارضة قضايا النظرية فى الوقت الذى تساعدنا فيه النظرية وتمدنا بنـوع من المفـــاهيم والمقولات والافتراضات التى بواسطتها نستطيع مواجهـــة مشكلات الدراسة ، وحيث ان النظرية تشتمل على قضايا عامة فانها بذلك تصبح ذات مدلولات قوية ومعبرة عنها بالفاظ بسيطة التركيب لكنها غنية فى معناها ، وفضلا عن ذلك فانه فى ضوء النظرية تفسر كافة الظواهر الاجتماعية ، وهى بذلك مفيدة لأنها تساعدنا على رؤية أوجه التشابه والتعارض فى ثنايا البحث (١) ٠

وهناك أنواع متباينة من النظريات السوسيولوجية منها ما هو تقليدى ومنها ما هو معاصر وأسوق فى عجالة مثالا للنظرية السوسيولوجية لتوضيح ما سبق قوله عنهـــا وأذكر على سبيل المثال ـ نظرية الفعـــل الاجتماعى Social Action عند تالكوت بارسونز Parsons الذى حوال فى اطارها تفسير مفهوم النسق الاجتماعى S. System مما أدى الى اســـتخفاف بعض السوسيولوجيين الآخرين ، الأمر الذى بارسونز يطور نظريته على مستويات عدة من التجريد والامبريقية فى ذات الوقت على مستوى شـــامل من التفاعل الانسانى وبأسلوب جعله يحـوز أسبقية الاستخدام للمفهـوم النظرى عن النسق الاجتماعى ٠

وحول بناء النسق الاجتماعى ٠ فقد تابع بارسونز العلامة ماكس فيبر Weber فى مناقشته لوحدة الفعل كبؤرة لدراسة النسق واعتمد هـذا التفسير على أسس اخلاقية Moral مع بناء قيمى متكامل فضلا عن اعتماده على قوة الالزام الخارجى لا الالزام الفطرى ، وقد راق لبارسونز هذا المعيار

---

(١) Wison : Sociology p. 30.

الذى ساعده على اظهار ما يمكن أن نسميه بالنظرية الارادية للفعل مركزا على الفاعل فى علاقته بالموقف (١) ٠

ويحدثنا ميرتون Merton فى كتابه « النظرية الاجتماعية والبنـــاء الاجتماعى » عن النظريات متوســـطة المـــدى Middle Range Theories تلك التى تحوى فروضا أساسية تطور البحث يوما بعد آخر بفضل الجهود المنسقة الهادفة لتطوير نظرية تتمكن من تفسير كل الملاحظات حول السلوك والتنظيم والتغير الاجتماعى وتحدد أى شىء نلاحظه بأسلوب مفصل يقترب من الخصوصيات ويبتعد عن العموميات ٠ كما تتسـم النظريات المتوسطة المدى بالتجديد وتكتفى بملاحظة الحقائق Facts من أجـل توجيـــدعا فى مشروعات تسمح بالاختبار الامبريقى كما تتعامل هذه النظريات مع كافة المظاهر غير المحددة للظاهرة الاجتماعية (٢) ٠

تلك هى نماذج أو أمثلة موجزة لاستخدام النظرية فى علم الاجتماع ان دلت على شىء فانما تدل على تلك الجهود الفعالة التى يبذلها الرواد والباحثون بهدف التاصيل النظرى لمقومات هذا العلم حتى يسهم بايجابية فى عـلاج مشكلات المجتمع ٠ واذا كان تيماشيف قد حدد مفهوم النظرية السوسيولوجية بأنها مجموعة قضايا محددة فى مفاهيمها ، هادفة الى الوصول لفكرة التعميم تلك التى يستثمرها العلماء والباحثون للتوصل الى فكرة القانون الاجتماعى وهو ثمرة العلم ٠ فماذا نقصد اذن بالقانون الاجتماعى ؟

القـــانون الاجتمـــاعى :

يرى جلن Gillin أن القوانين الاجتماعية هى محصلة التعاون المستمر بين الظاهرة الاجتماعية أو النظام من علاقات متداخلة تفسر سبب الظاهـره أو نتيجتها ٠ غير أن القوانين الاجتماعية تختلف عن القوانين الطبيعية فى أنها أقل يقينا ، ويبدو ذلك اذا ما قارنا القوانين المتعلقة بالذرة على سبيل

---

(١) Charles P. Loomis and Zone Loomis ; Modern Social Theories Evan Nostrand comp Inc. New York, 1961 p. 327.

(٢) Robert K. Merton : Social Theory and social structure, The Free Press, New York, 1968 p. 39.

المثال نلاحظ قوانين صادقة فى نتائجها على عكس القوانين المتعلقة بسلوك الكائن الانسانى فانها تختلف فى درجة اليقين والموضوعية ان قليلا أو كثيرا بحسب تاثير الارادة الكلية على سلوك الانسان وأفعاله ، بل أنه من الصعوبة بمكان أن تتذكر كافة الحالات التى تحدث بسببها كل التطورات الاجتماعية وان كان هذا لا يثير صعوبة فى امكان ضبط التجارب الانسانية نسبيا على عكس ما يصطنعه البيولوجى من ظروف معينة لاحكام عجلة ضبة التجربة الانسانية فى هذا المجال الحيوى ، ومن هنا كان من المفيد عند السوسيولوجى أن يستعين بالطرق والأدوات الاحصائية وان يقارن ما يتوصل اليه من نتائج ليتبين أوجه التباين بين جزئيات الظاهرة موضوع الدراسة .

ويستطيع السوسيولوجى الافادة من التجربة التاريخية الواسعة وان ينظم ملاحظاته عنها ، ويمكن القول أن كل ما يتوصل اليه من نتائج يقينية لها صفة العمومية هى ما يمكن أن نطلق عليه « قوانين اجتماعية » لأنها تصف لنا حالات السلوك الانسانى تحت تأثير الشروط المتاحة .

ويرى تارد Tard أن القوانين التى تصف درجة فعل القوى الاجتماعية تحدد فى اطار ثلاث حركات هى : المراجعة ، او المعارضة لهذه القوانين أو التكيف معها .

ومن أنواع القوانين الاجتماعية ـ قانون اختيار الفرد لفعل ما من بين افعال متغيرة تنتمى الى تراثه بصفة جزئية أو تستند الى القيم التى تنشأ عليها . وهناك قوانين الاختيار الاجتماعى ومعناها أن مجموعة من الناس ينتقون أفكارهم وميولهم وأنماط معيشتهم ويؤسسون عليها أفعالهم الاجتماعية . وبالرجوع الى جدنجز Giddings فان الأفكار الهامة فى الاختيار الاجتماعى تتعلق فى تأثيراتها بقوة الفضائل الكلية وتكاملها مع الحقيقة الفردية ، وهناك قوانين التقليد حيث أنه بالرجوع الى تارد الذى يفسر لنا كم من الأهمية ، ما يبدو فى التغير الاجتماعى من أحداث تتم عن طريق التقليد فالطفل فى السنوات الأولى من حياته يكتسب عادته من الجماعة عن طريق اسلوب التنشئة أو تقليد الكبار ، وقد يؤدى التقليد الى احداث درجة من التقدم . وهناك أيضا قانون تطور البناء الاجتماعى حيث يشير العلامة

جدبلوفتش Gumplowicz انه حينما يأتلف مجتمعين خلال عملية القهر فان المجتمع المتطور هو الذى يتقدم (١) ٠

ويشير ليندبرج Lundberg الى مفهوم القانون الاجتماعى من زاوية أن العلوم الاجتماعية قلما تصل الى قوانين ثابتة ومؤكدة مثلما هو الحال فى العلوم الطبيعية ذات التاريخ الطويل والتراث الضخم من التجارب المحققة ، لكنه يرى انه لكى تصل العلوم الاجتماعية الى ما يشبه اليقين فى علوم الطبيعة فان عليها أن تنظم الملاحظات الانسانية بحيث تساعد على تأكيد الحقائق الاجتماعية المدروسة وتصل الى فكرة القانون مستعينة بكافة أساليب البحث العلمى ٠

وقد كان من اليسير على علماء الاجتماع فى خضم هذه المغامرات العلمية أن يأخذوا بأساليب المنهج العلمى غير أنهم استفادوا من الطرق الاحصائية توصلا الى فكرة التعميم ٠

وهناك نقطة جديرة بالذكر وهى أنه لكى نصل الى درجة الموضوعية فى بحوثنا الاجتماعية فانه ينبغى أن نتفق مسبقا حول تحديد للمفاهيم المستخدمة ، ويعتقد ليندبرج أنه يمكن تحقيق اليقين فى مجال العلوم الاجتماعية بأسلوب صحيح كما يرى هنرى ل ٠ مور ـ بفضل الاستثمار الأمثل للمادة الاحصائية المتاحة بعد التخطيط لمشروع البحث حتى تجتاز مرحلة الوصف الى مرحلة المقارنة ، وتفسير العلاقات بين الحقائق فضلا عن اختبار مدى ثبات وصدق ما تصل اليه من تعميمات بالتطبيق على عدد من الحالات مستخدمين التحليل الكيفى لكافة المعطيات القائمة ٠

وباختصار فاننا ـ كاجتماعيين ـ لم نستفد بالأسلوب الاحصائى بصورة عامة وشاملة منذ حداثة عهد العلم الاجتماعى فى الوقت الذى استعانت به العلوم الطبيعية الأخرى حتى توصلت بفضل ذلك الى قوانين مؤكدة وثابتة ٠ وان أملنا كاجتماعيين أن ندخل معالم الاتجاه التكنولوجى باوسع

---

(١) John Lewis Gillin and others : outlines of sociology third Edition, The Macmillan Comp. New York 1930 p. 414.

معانيه فى مجال دراستنا الاجتماعية حتى نقدم نتائج اكثر وأسهل تطبيقا واشمل فائدة وبذلك تكتسب المفاهيم السوسيولوجية ثراء فنيا (١) ٠

النظرية السوسيولوجية اذا تستطيع أن تثرى مقومات العلم بفضل ما تحويه من قضايا ومفاهيم تعتبر منطقة نفوذ علم الاجتماع ٠ ويأتى دور القانون الاجتماعى كثمرة لكافة الجهود النظرية ـ والامبريقية التى يبذلها الرواد والباحثون حتى يصلوا الى التعميم ، ومن ثم صياغة النتائج المتفق عليها فى شكل قانون علمى يؤكد هو بالتالى أصالة العلم وقوة نفوذه بين سائر العلوم الانسانية التطبيقية ٠

غير أنه لا يكفى أن يرتكز علم الاجتماع فحسب على البناء النظرى وانما هناك بناء منهجى يوضح الأسلوب المتبع فى دراسة الحقيقة الاجتماعية وبقدر اصالة وموضوعية وحيدة هذا البناء بقدر موضوعية النتائج التى يتوصل اليها الباحث وان كنا نرى منذ البداية أن هناك جدلا يدور حول اهلية علم الاجتماع للاستخدام المنهجى العلمى فى دراسة ظواهره وهذا ما سوف نوضحه فى الفترة القادمة ٠

(ثانيا) البناء المنهجى فى علم الاجتماع

نتناول دراسة البناء المنهجى فى علم الاجتماع وذلك من خلال مناقشتنا لبعض النقاط الجوهرية المتعلقة بذلك ، فمثلا نرى ضروريا الاشارة الى الجدل الذى يدور حول أهلية العلم لاستخدام المنهج السليم فى بحوثه ودراساته وذلك كمدخل أساس عند دراسة البناء المنهجى ٠ بعد ذلك كان من الأهمية بمكان الاشارة الى خطوات البحث العلمى اذا ما اردنا أن يكون لهذا العلم نتائج ذات قيمة متبعا فى تحقيق ذلك بهذه الخطوات الأساسية وتؤدى هذه الفكرة بالتالى الى الاشارة الى البحث الاجتماعى الميدانى ٠ ذلك ان النظرية تسبق التطبيق ، وان التطبيق بالضرورة اجراء هام لتحقيق فروض النظرية وقضاياها واختبار مدى صدقها وثباتها ، ولكن التطبيق فى علم الاجتماع له طرقه وأدواته ومن هنا كانت الاشارة الى تلك الأدوات المستخدمة فى البحث

(١) George A. Lundberg : Foundations of Sociology New York, The Macmillan Comp, 1939 p. 148.

الاجتماعى • كل هذه قضايا كان من الضرورى الاشارة اليها قبل التعرض لأهم مناهج البحث الاجتماعى التى تحدد بناء العلم المنهجى وتوضح أبعاده النظرية والامبريقية فى تناسق وتكامل وتفاعل مع كافة حقائقه !

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى الخاصة بالجدل المنهجى ـ فان هنـــرى بونكاريه قد وصف علم الاجتماع بانه علم ذو أكبر عدد من المناهج وأقـــل عدد من النتائج • وواقع الأمر أن هذا القول يثير نقاشا وجدلا حول البنـــاء المنهجى للعلم ، ذلك الجدل الذى ظهر نتيجة نظرة البعض لهذا العلم ومناهجه فى ضوء منهج العلم الطبيعى ، ويعتبر ديلثى أول من فسر الفروق بين هذين العلمين ، ان العالم الطبيعى ـ على العكس من عالم النشاط الانسانى لا يمكن أن تفسره الا من الخارج ، فضلا عن أن العلاقات الرابطة لظواهره هى علاقات علية آلية فى الوقت الذى تخضع فيه علاقات الظواهر الانسانية للغير ، وتهتم بوضع تفسيرات مخططة لمفهوم الشخصية والثقافة الذى يمثل فى واقـــع الأمر اطارا مرجعيا لفهم نشاط الانسان عبر فترات التاريخ المختلفة • وتفســير ديلثى للفروق الطبيعية ـ الانسانية يأتى من منطلق الترابط والتكامل بين بعضها البعض وان اختلفت فى المناهج المتبعة فى الوصول الى نتائج محددة •

ويمكن الرد على الهجوم الموجه لأسلوب الاستخدام المنهجى فى العلم الاجتماعى فى أن رواد العلم قد توصلوا فعلا الى تعميمات امبريقية عـــديدة وان لم يتوصلوا الى قوانين سوسيولوجية على درجة من اليقين والثبـــات مثلما هو الحال فى العلم الطبيعى . غير أن هـذا الأمر لا يقلل من شـــأن البناء المنهجى فى علم الاجتماع ذلك لأنه يتنـاول دراســة ظواهر يصعب قياسها أو ـ تحديدها كميـــا أو تصنيفها تحت ظروف علاقـــات علية محدودة (١) •

وواقع امر أن علم الاجتماع يختلف أساسا عن العلوم الطبيعية ســواء فى مجال الدراسة أو من حيث المناهج المتبعة فى البحث ، حقيقة لقـد حـاول علماء الاجتماع الاستعانة بالمناهج المتبعة فى العلوم الطبيعية فى مجال البحث

---

(١) بوتومور : تمهيد فى علم الاجتمـــاع ترجمة د • محمد الجوهرى وزملاؤه • دار الكتب الجامعية • الطبعة الثانية ١٩٧٣ ص ٢ •

للسوسيولوجى وذلك بهدف ارساء قواعد العلم الجديد على أسس ثابتة ، ولكن بطبيعة الحال فقد استخدمت هذه المناهج باسلوب يتمشى مع الدراسة السوسيولوجية ، وعلى سبيل المثال فان مكان اجراء التجارب عند عالم الطبيعة هو المعمل ، وهذا المعمل يقابله فى الفهم السوسيولوجى المجتمع بعامة ، بينما تاتى التجربة الاجتماعية عن طريق الدراسة المقارنة للظاهرة فى مراحل تاريخية متباينة حيث أن علم الاجتماع لا يمكن أن يعود بالمجتمعات الى سابق ماضيها حتى يعتبر فروض دراسته ، وانما يستعين فى هذا المجال بكافة المعطيات التاريخية كبدائل للتجربة المعملية .

خطوات البحث العلمى :

ان أى بحث اجتماعى ينبغى أن يمر فى خطوات محدودة حتى يصل الى المستوى العلمى ، وليس من الضرورى أن تتبع هذه الخطوات فى سياق خاص ، لكننا نأخذها فى الحسبان كاطار منطقى للبحث ، كذلك فان الباحث قد يعتمد على التسجيل اثناء البحث ، وفى ذات الوقت يعتمد على ما تختزنه ذاكرته من حقائق .

أما خطوات البحث العلمى فانها تتحدد فيما يلى :

١ ـ **اختيار مشكلة البحث :** وذلك عن طريق كافة التساؤلات التى ترد الى الذهن وما يمكن التوصل اليه من فروض ، ويمكن اخضاع مشكلة البحث للتحقيق العلمى ، بل قد يبدأ البعض بمرحلة اختبار الفروض ، كما يحاول البعض الآخر أن يحصل على خبرة كافية عن مشكلة البحث منذ البداية خاصة وأنه ينبغى أن يعرف الخط السياسى الذى تدرس المشكلة فى اطاره ، وعند اختيار المشكلة فان البعض قد يحاول أن ينحصر فى منطقة التجريب الاجتماعى ، ويعتبر ذلك بمثابة اطار معرفى له ، ويحاول أيضا أن يدرس الاطار المكانى للبحث مستعينا بقواعد الطريقة العلمية .

٢ ـ **الفهم النظرى والمعرفى :** انه من المفيد أن تكتشف كم من مشكلات الدراسة يمكن أن تخضع للتحقيق العلمى ، وتلك حقيقة ناتجة عن تطور فى الخلفية المعرفية للباحث عن طبيعة مشكلة البحث ، وهذه الخطوة مفيدة فى تاكيد الاهتمام بالمشكلة وبصفة عامة فان تاصيل هذا الجانب المعرفى انما يحصل عليه الباحث من خلال مراجعة داخل المكتبة .

٣ ـ **وضع خطة البحث** : يعتمد المهندس مثـــلا الى وضـــع تخطيط لمشروعة عند تشييد بناء ما ، كذلك فان الباحث الاجتماعى أيضا يستطيع أن يضع خطة بحثه مشتملة على القواعد الخاصة فى جمع الحقائق التى يقـوم بدراستها مع تحديد للمتغيرات الجوهرية التى تساعده فى تنسيق مادتـــه العلميـــة ٠

٤ ـ **جمع الحقائق والمعلومات** : يتم جميع الحقائق والمعلومات ومادة البحث المطلوب دراستها فى اطار خطة البحث ٠ وفى بعض الأحيان تكون هذه الخطة مبسطة مثل الرجوع الى ـ المصادر أو القيام بالاستفتاء أو المقـــابلة الموجهة مع اختيار عينة البحث بأسلوب علمى ، وأخيرا فان الحقائق يجب أن تجمع بكل كفاية ممكنة ، وفى بعض الأحيان يكون من الضرورى تدريب فريق من المحققين والمقابلين المهرة ٠

٥ ـ **تحليل البيانات** : هذه الخطوة هامة جدا من أجل أعداد النتـائج وهى تحتوى على مجموعة من العمليات الأساسية مثل التصنيف والقيـاس والمقارنة وكل هذه العمليات ترتكز على تكوين مادة البيانات ٠ وفى البحث الشامل يمكن تفريغ البيانات آليا أما فى العمليات البسيطة فيمكن ـ التفريغ يدويا ، ويجب على الباحث أن يضع فى خطة البحث اشتمالها على الأدوات الفنية للتحليل وان يختبر النتائج التى لم تسهم فى اثراء فروض الدراسة ٠

٦ ـ **وضع تقرير البحث** : أنها خطوة هامة تفيـــد فى اثراء الاطار المعرفى لمشكلة الدراسة وتأتى أهمية هـذه الخطوة من حيث التوصـــل الى المفاهيم المتطورة والمتجددة ، وأنه يمكن عن طريق التحقيق العلمى التوصـل الى أساس هام فى صياغة القرار الذى يؤثر فى صياغة السياســة العـامة ، وان التقارير العلمية يمكن أن تســاعد بطريقة تلقائيــة كافــة البحوث اللاحقـــة (١) ٠

هذه هى خطوات الطريقة العلمية التى ينبغى على الباحث الاجتماعى اتباعها من أجل التوصل الى نتائج عامة ويقينية وهى تحوى فى تفصيلاتها

---

(١) Alvin Bertrand Basic Sociology, An Introduction to Theory and method, Appleton Century crofts, New York 1967 p. 38

قضايا منهجية تؤكد أهلية علم الاجتماع لاستخدام المنهج العلمى فى دراساته وبحوثه .

وتجدر الاشارة الى أن البحث الاجتماعى الذى نقصده ليس دراسة نظرية فحسب وانما نقصد البحث الاجتماعى المتكامل الذى يبدأ بالنظرية وينتهى بالتطبيق فى ترابط وانسجام بين العنصرين ومن المفيد أن نلقى الضوء على الأبعاد الامبريقية فى البحث الاجتماعى حتى تتضح صيغة التكامل وتبدو اهمية استخدام الطريقة العلمية .

ثالثا ـ البحث الاجتماعى الأمبريقى فى علم الاجتماع :

قد يبدو احيانا أن البحث الاجتماعى الامبريقى ربما يتخذ منطقة نفوذ تتعلق بدراسة الرأى العام والدوافع والاتجاهات وحالات السلوك ، الا أنه قد يبدو أن التطبيق فى علم الاجتماع قد يتميز عن البناء النظرى للعلم ، أو بمعنى آخر قد يبدو متباينا معه فى التحليل السوسيولوجى من حيث الوصول الى درجة ما من الموضوعية أو التنظيم ، لكن هذا الاعتقاد لا يمكن أن يميز البحث الاجتماعى الامبريقى وينفصله عن سلطة العلم ونطاق نفوذه لكن حقيقة الأمر أن التطبيق فى علم الاجتماع يتكامل مع البناء النظرى للعلم فضلا عن اسهامه فى تحقيق درجة ما من الموضوعية فى كافة حقائقه ، وقد ظهر حديثا فرع علم الاجتماع التطبيقى لمواجهة مشكلات المجتمع مع الافادة من كافة مقومات العلم النظرى فى مجال التطبيق . وقد أثار التطبيق فى علم الاجتماع فى الماضى مشكلات منهجية تتبلور حول أهلية هذا العلم للقيام ببحوث امبريقية خاصة وأنه قد خضع فترة من الزمن للتأملات الفلسفية فضلا عن أن الفروع التطبيقية للعلم مثل الاجتماع الصناعى أو الاقتصادى أو علم الاجتماع العائلى مثلا قد لا تستطيع فى أحيان معينة أن تقدم تطبيقا مناسبا لطرق البحث الاجتماعى فى المجالات الخاصة بسبب اعتماد عالم الاجتماع فى الماضى على مخيلته ، كل هذا أثار تباينا حول علاقة علم الاجتماع النظرى ومجالات تطبيقه .

وحقيقة الأمر فان هناك تكاملا ـ كما سبق القول ـ بين النظر والتطبيق ذلك أن البحث الاجتماعى الامبريقى لابد أن يسبقه بناء نظرى يعتبر مدخلا للتطبيق الميدانى ـ ومن ناحية أخرى يساعد التطبيق فى البحث الاجتماعى

على اظهار الدلالة الوظيفية للظاهرة اطار البناء الاجتماعى الكلى بصفة عامة ، ومن هنا يمكن اخضاع حقائق النظرية للتحقيق التجريبى وبذلك يمكن القول أن أى باحث أمبريقى لا يمكن أن يخلو بحثه من اطار نظرى بسبب انه فى حاجة الى التنبؤ والوصول الى حقائق محددة عن موضوع البحث ، وعلى هذا فانه يستعين بكافة خطوات الطريقة العلمية ـ التى سبق الاشارة اليها ـ للوصول الى الهدف المنشود بفضل التكامل المعرفى بين النظر والتطبيق فضلا عن الاستعانة بأساليب التحليل الكمى والكيفى ، وما هو معروف من طرق وأدوات احصائية ، ومن القضايا المطروحة للبحث الاعتقاد بأن العلوم الطبيعية يمكن أن تقاس ، بينما الظاهرة الاجتماعية تتعلق بالروح والشعور عن الكائن الانسانى ، ومع هذا فان علم الاجتماع يستخدم من المناهج المناسبة ما يفيد فى الوصول الى الحيدة والموضوعية عند دراسة الحقيقة الاجتماعية ويؤكد القول بأن « الحقيقة توجد الطريقة » (١) ٠

ومن هذا المنطلق نصل الى حقيقة التكامل بين النظر والتطبيق فى علم الاجتماع خاصة وأنه بمرور الوقت تزداد الأهمية الأمبريقية فى دراسات العلم وذلك مع تطور مشكلات المجتمع وظواهره مع الحاجة الملحة لدراسة هذه المشكلات عن طريق الواقع والتجربة حتى تكون النتائج التى يصل اليها الباحث الاجتماعى أقرب الى التطبيق العلمى ومن ثم علاج مواطن الوهن الاجتماعى فى المجتمع ٠

طرق البحث الاجتماعى :

نشير الى أبرز طرق البحث الاجتماعى فى عدة نواحى نذكر منها :٠٠

طريقة دراسة الحالة : التى تهدف الى دراسة الأفراد من أجل الوقوف على عوامل خلق المشكلات المختلفة ٠ وعلى هذا الأساس كان من لأهمية بمكان ان يتوجه الباحث بأسئلته للمبحوث بحيث لا يثير فى نفسه الشكوك أو الخوف ، فضلا عن أهمية ارجاء تسجيل أية معلومات لحين انتهاء المقابلة ويجوز للباحث أن يقوم بتسجيل البيانات التى يخشى نسيانها أن الباحث الماهر هو الذى تسعفه خبرته فى البحث وملاحظة سلوك وتصرفات العميل

---

(١) Viertel : Aspects of sociology p. 177 op. cit.

بحيث يستطيع أن يستغنى عن بعض الأسئلة وعلى هذا الاساس فانه يجب مراجعة اطار بحثه وأسئلة بحيث تكون شاملة ومستوفاة ومؤدية للغرض الذى وضعت من أجله ٠

طريقة المقابلة أو الاتصال الشخصى الباحث الاجتمـــاعى والمبحوث :

وهذه الطريقة لا تهتم بحالة فردية ما ، بل قد تتطرق للوقوف على مستوى معيشة حى من الأحياء مثـــلا ، أو معرفة ظروف العمل فى أحـد المصانع ، أو دراسة العادات الشعبية فى بيئة معينة ، ولهذا يجب أن يشمل البحث كافة التفاصيل التى تفيد ابعاده ونتائجه وتساعد على رسم خطة العلاج ٠ ومن البديهى أن يضع الباحث خطـــة عند وضع أسئلة بحثه ، بحيث تساعده الاجابات فى التفريغ والجدولة ، لهذا كان من الأهمية بمكان اعداد افراد البحث وكسب ثقتهم لانجاح أهداف البحث ٠ وفضلا عن كل ما تقدم وجب عنـد صياغة أسئلة استمارة المقابلة أن تحتمـل الاجابة بالتأشير بعلامة (صح) او علامة x أمام الاجابة الصحيحة الا فى البحوث ذات النتائج العامة وغير المقصودة على أفراد بالذات وفى هـذه الحالة قد لا يطلب من الأفراد ذكر أى اسم ٠ هذا الى ضرورة تدريب فريق من الباحثين لاجراء المقابلات المطلوبة خاصة اذا كانت العينة كبيرة الحجم ويصعب على باحث فرد مقابلة جميع افرادها ويجب توجيه هؤلاء الباحثين توجيها سليما ذلك أن كل بحث يتشكل بحسب طريقة الباحث فى ادارة الحوار مع المبحوث وفى طريقة توجيه الأسئلة٠

طريقة الأسئلة او الاستفتاء : خاصـــة اذا استلزم الأمر دراسة اتجاه الرأى العام فى موضوع معين قبل التنفيذ لهـــذا كان من الضرورى اكتشاف طريقة تكون أسرع واقل تكلفة وتعرف هذه الطريقة بطريقة الأسئلة وقـد يطلق عليها البعض طـــريقة الاستفتاء لأنها تنطوى على نوع من الاسترشاد بآراء العينة المختارة فى تدعيم أركان المشروع المعـد للتنفيذ والانصراف عنه كليـــة ٠ الا أن هذه الطريقة لها بعض العيوب منها أن بعض المبحوثين قـد ينصرفون عن الاجابة الصحيحة ، وتنطوى اجاباتهم على نوع من الاستهتار، وقد لا يفهم المبحوث أهمية وخطورة النتائج المترتبة على اجاباته ٠ ومن هنا كان الباحث الفطن أكثر قدرة على اكتشاف الاجابات المزيفة وعزلها ، أما اذا كان جمهور الاستفتاء مصابا بهبوط مستواه الثقافى وفى هذه الحالة يـــلزم

تبسيط كشف البحث بحيث يناسب مستوى المبحوثين وقد يستخدم الصور والرسوم المعبرة عن أسئلة معينة للمساعدة على الاجابة السليمة وفضلا عن ذلك يجب أن تكون دلالات الأسئلة واضحة وغير قابلة للشك أو سوء القصد (١) ٠

ويؤكد الفن برتراند على أهمية استعانة الباحث بالأدوات الاحصائية التى تساعده فى جمع بيانات البحث مثل الرسوم البيانية وغيرها ، فضلا عن أنه ينصح أن تكون ملاحظة الباحث للمشكلة وللمبحوثين بالمشاركة حتى يكتسب صداقة وثقة أعضاء مجتمع البحث (٢) ٠

وواضح من كافة طرق البحث المشار اليها أنها تمثل ادوات هامة عند الباحث الاجتماعى تمكنه اذا استخدمها بدقة وعناية من تحقيق اهداف البحث باسلوب علمى خاصة اذا ما كان هناك درجة من التناسق بين النظرية والتطبيق ٠

ويساعد على تحقيق هذا التناسق المنهج الذى يتبعه الباحث فى مناقشة كافة جوانب الدراسة وقد سبقت الاشارة الى المنطق الجدلى حول لاستخدام المنهجى فى علم الاجتماع ، وقلنا ان رواد العلم تمكنوا من استخدام مجموعة من المناهج المناسبة لطبيعة الدراسة السوسيولوجية سوف نشير اليها فى الفقرة التالية ٠

رابعا ـ مناهج البحث الاجتماعى :

يتضح لنا من مناقشة قضايا المنهج فى علم الاجتماع ، أن هذا العلم لم يستسلم البتة لما وجه اليه من هجوم حول الاستخدام المنهجى فى دراساته بحجة أن هذه الدراسات تبحث فى الانسان وهو كائن متغير فكيف يمكنه الوصول الى فكرة القانون من دراسات متغيرة ، وقد سبق مواجهة هذه التحديات ٠ غير انه من الضرورى فى هذا المقام تأكيدا لما سبق قوله من استعراض لبعض مناهج البحث فى علم الاجتماع حتى تتأكد موضوعية واصالة هذا العلم وأهمية قضاياه وحقائقه ٠ وسوف نشير الى ذلك فيما يلى :

---

(١) د ٠ محمد طلعت عيسى : مناهج التدريب العلمى القاهرة الحديثة ١٩٥٧ ص ١٣٩ ٠

(٢) Alvin Bertrand : Basic sociology op. cit. p. 41.

١ ـ **المنهج التاريخى** : يعتبر التاريخ سجل الجنس البشرى المكتوب، لهذا لا ريب فى أن يعود الباحث الاجتماعى الى هذا السجل بين الحين والآخر للافادة من معطياته لأن البحث الاجتماعى قلما يخلو من منظـــور تاريخى ، وواجب الباحث الاجتماعى فى هذه الحالة أن يحلل الحقائق التاريخية وأن يقارن بينا ويكشف عن التعميمات التى تنطوى عليها ، ذلك ان التعميم هدف الباحث فى نهاية المطاف ٠

ونظرا لأهمية الجانب التاريخى فى أى بحث اجتماعى ، مائنا نجد دوركايم قد استعان بهذه المعطيات التاريخية ، فى أغلب بحوثه ودراساته . وان كان يـــرى أن التاريخ ينصب على ما هو خاص على العكس من عـلم الاجتماع الذى ينصب اهتمامه فى الوصول الى فـــكرة التعميم توصلا الى القانون الاجتماعى ، ان استخدام دوركايم للمعطيات التاريخية من أجـل التعميم لم ينصب على الاطار المكانى فحسب وانما كانت له أبعاده الزمانية أيضـــا (١) ٠

وفضلا عما تقدم فان استرشادنا بالمنهج التاريخى فى بحوثنا ودراستنا السوسيولوجية يتطلب منا فى واقع الأمر الاستعانة بمصادر مختلفة بهدف جمـــع البيانات اللازمة ، من ذلك على سبيل المثـال : الاستعانة بالوثائق والاخباريين من الناس الذين لسوا الظاهرة موضوع الدراسة عن قـرب ، غير أنه يجب أن نكون حذرين فى استخدامنا للوثائق المتاحـــة ، اذ المفروض ان نعمل فيهـــا فكرنا لنخلصها من كل زيف ـ كما دعا الى ذلك ابن خلدون ـ ولا بأس من أن يستشير الباحث المتخصص فى التاريخ للافادة من اقتراحاته ، ومدى سلامة ما يطلع عليه من مصادر ووثائق تاريخية (٢) ٠

وتأخذ الدراسات التاريخية فى الاعتبار عنصر الزمان والمكان ـ كمـــا سبق القول ـ وهذا هو المعيار الأساسى لأهمية هذا المنهج التاريخى عنـد دراسة المفهوم الثقافى ، واذا كان سوروكن Sorokin قد اهتم بدراســـة

---

(١) د ٠ محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع الطبعة الثانيـــة الأنجلو ١٩٧٥ ص ٣١ ٠

(٢) د ٠ عبد الحميد لطفى : مرجع سابق ص ٣٥١ ٠

ديناميات التغير الثقافى فانه استفاد من المنهج التاريخى عند دراسة لأصل الثقافات ومدى نموها ، ومن هنا اعتبر التاريخ مصـدر الكثير من النظريات السوسيولوجية ممـا جعل العلامة فيبر يطالب عالم الجتماع بضرورة دراسة التاريخ حتى يتمكن من جمع حقائق دراساته • ومع ذلك فقد واجه هـذا الاتجاه التاريخى تحديا كبيرا فى بداية هـذا القرن سواء فى علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا الثقافية • اذ رأى مالينوسكى أن من المهم ان نحدد دراستنا لنفهم الحياة الاجتماعية فى اطار كلى فى مجتمع محدد ، هذه النظرة تجد صدى عند علماء الاجتماع الأمريكان الذين يهتمون بما يسمى بالتحليل السوسيولوجى للوحدات الصغرى وهى دراسات تهتم بدراسة وبحث وبناء وتغير الجماعات الصـــغرى (١) •

ورغم كل هذا فما زال المنهج التاريخى له اعتباره من حيث الوقوف على النظم الاجتماعية ودراسة العلاقة بين الظاهرة الاجتماعية ، وبحث رواسب وبقايا الشعبيات فى النظم الاجتماعية القائمة هذا فضلا عن المقارنات بـين الأوضاع المختلفة للمجتمعات ومعرفة أوجه التباين أو التشابه والقوى المؤثرة فى التغير والتطور والتقدم الاجتماعى (٢) •

من كل ما تقـدم تبدو لنـا أهميـة المهج التاريخى واستخداماته فى بحوثنا الاجتماعية المعاصرة كما حدث عند دوركايم وغيره من رواد هذا العلم الأمر الذى لابد أن نقرر معه أن هذا المنهج لبنة أساسية فى البناء المنهجى لعلم الاجتماع وكل ما فى الأمر أن نستخدم المعطيات التاريخية التى يمدنا بهـا هـذا المنهج بشىء من الفحص والتمحيص حتى تخلصها من كافة الشوائب التى قد تعلق بها •

٢ ـ تجدر الاشارة بادىء ذى بدء الى أن استخدام المعطيات التاريخية

---

(١) د • محمد على محمد : دراسة علم الاجتماع (مناهج البحث وأدواته) الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨٥ ص ٧٣ •

(٢) د • مصطفى الخشاب : دراسة المجتمع الانجلو المصرية ١٩٨٥ ص ٧١ •

مع المقارنة يعتبر تلازما ضروريا بهدف الوصول الى التعميم غير أن استخدامنا للمنطق المقارن يتطلب منا معايير محددة وذلك بعد أن نصف الحقائق المقارنه تصنيفا له دلالته يعنى عند دوركايم وضع انماط للمجتمعات وأساس ذلك فى **مفهومه** : مبدأ التركيب المورفولوجى ، ومبدأ توزيع الوظائف مبررات ذلك أن التفسير فى الفهم الاجتمـــاعى يستند الى الوصول الى علاقات عليـه بين الظواهر • وفضلا عن ذلك فان المقارنه فى علم الاجتماع تعتبر التجربة غير المباشرة • وكثيرا ما ينصح دوركايم بتوسيع نطاق المقارنه بين المجتمعات حتى نصل الى نتائج محققة (١) •

ويرى دوركايم وهو بصدد الحديث عن طريقة التغير النسبى فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » أن هـذه الطريقة لا تؤدى كل ما يتضمن من نتائج الا اذا استخدمها الباحث الاجتماعى بدقة فائقة ينفق الا يبرهن المرء على شىء البتة كما يحدث فى كثير من الأحيان حينما يلتقى بعدد قليل أو كبير من الأمثلة لكى يبرهن على أن الظواهر قد تغيرت فى بعض الحالات المتفرقة وفقا لما يقتضيه أحـد الفروض • وليس من المستطاع أن يستنبط المرء أى نتيجة عامة ممـا يبدو من مطابقة الظواهر لأحد الفروض فى مثل هذه الحالات النادرة بل لابد من المقارنة بين مجموعتين من المتغيرات (٢) •

معنى هذا أن دوركايم يؤمن بتلازم منطق المقارنة مع منطـق التـاريخ كل هذا بهدف التوصل الى تفسير ملائم للحقائق الاجتماعية للدروسة ، وقد كان لدوركايم فى معظم أعماله شواهد دراسية لمنطقه التاريخى المقارن •

غير أن استخدامنا لمنطق المقارنة فى بحوثنا الاجتماعية يستزلم مراعاة أسس هذا المنهج وخصائصه ومنهـا : ضرورة التعمق فى أحداث المـاضى لاكتشاف القوى التى تحدد العمليات الاجتماعية ، مع ضرورة فهم الواقع الاجتماعى ليس فقط من الخارج بل ايضا دراسة بناءاته الداخلية ومن الاهمية بمكان تفسير معنى الظاهرة موضوع الدراسة فى اطـار النطـاق الثقافى الذى تعيش فيه لمعرفة وظائفها مع التأكيد على اجراء المقارنات بين النظم المتشابهة

---

(١) د • محمد عارف : المرجع السابق ٣٨ •

(٢) دوركايم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع ترجمة د • محمود قاسم • النهضة المصرية ١٩١٦ ص ٢٦٦ •

مع صياغة مجموعة من الفروض التى توجـــه المعطيات المقارنة حتى يتسنى الوقوف على العلاقات الوظيفية بين المتغيرات (١) ٠

من كل ما تقدم تبدو أهمية وضرورة مواكبه المنطق المقارن مع منطق التاريخ ، فالمنهج التاريخى منهج مقارن ، فالتجربة التاريخية المقارنة توصل الباحث الى أفضل النتائج سواء على مستوى المقارنة بين ظواهر اجتماعية فى مجتمعات متباينة أو متشابهة أو حتى داخل المجتمع الواحد ٠ وبذلك يتأكد منطق التجريب الاجتماعى عن طـريق المقارنـــة وفى ذلك أبلغ رد على الهجوم الموجه للعلم الاجتماعى باعتبار تعذر استخدام التجربة بالمفهوم الشائع فى دراســـاته

٣ ــ المنهج التجريبى : سبقت الاشارة الى كثيرا من عارضوا استخدام التجربة فى علم الاجتماع ، وقد جاء الرد على ذلك أن دوركايم قد استخدم المقارنة كتجربة غير مباشرة فى هذا العلم وفضلا عن ذلك فقد شاء علماء الاجتماع الا يحرم هذا العلم من الانتفاع بمنطق التجربة بمعناها الشامل ، ولذلك لجأوا الى القيام بتجارب محلية النطاق تختار لهـا عينات تتمثل فى قرى صغيرة أو احيـاء بسيطة بحيث اذا تمت هذه التجارب طبقت على نطاق واسع (٢) ٠

ولعل أوجست كونت أول من استخدم المنهج التجريبى فى دراســـه الظواهر الاجتماعية فقد فرق بين تجربة مباشرة وأخرى غير مباشرة ومن رايه أن التجربة المباشرة تصلح لاستخلاص القانون الاجتماعى بحيث ان دراسة الظواهر الاجتماعية لا يتم بمعزل عن الظواهر الأخرى ، فالتجريب المباشره هنا يقوم على الملاحظة للظواهر موضوع الدراسة ووضع الفروض العلمية التى تحتمل الثبات والصدق أو تحتمل أيضا الرفض بحسب نتيجة اختيارها(٣)٠

ويقصد بالتجريب ، القدرة على توفير الظروف التى تساعد على امكان

---

(١) د ٠ زيدان عبد الباقى : قواعد البحث الاجتماعى ٠ دار المعارف ط٢ ١٩٧٤ ص ٣٥١ ٠
(٢) د ٠ مصطفى الخشاب : دراسة المجتمع ــ مرجع سابق ص ٧٢ ٠
(٣) د ٠ زيدان عبد الباقى : المرجع السابق ٣٢٦ ٠

حدوث الظاهرة وفقا للاطار الذى وضعه الباحث بنفسه ، معنى ذلك أن بداية التجريب اثارة مجموعة من التساؤلات التى تجرى بعد ذلك الاجابة عليها ووضع الأدلة والبراهين التى تحدد العلاقات بين العلل والمعلولات ٠

معنى ذلك أن الملاحظة ركن أساسى فى التجريب ، لكن هذه الملاحظة قد تتطرق الى تعديل الظروف التى تنشأ فيها الظاهرة ان قليلا أو كثيرا حسب ما يتراءى للباحث ٠ التجربة اذن جزء أساسى من المنهج الاستقرائى ووسيلة لتحقيق بعض النتائج السريعة عن طريق الملاحظة ٠

وتجدر الاشارة الى أن التجربة الاجتماعية تتعرض للكثير من الظروف الصعبة على عكس التجـــربة فى العلوم الطبيعية بسبب أن مجال التجريب الاجتماعى يتعرض لظروف متشابكة ومتفاعلة ومتغيرة لأن الانسان هو محور التجربة السوسيولوجية ومن هنا يلجأ الباحث فى علم الاجتماع الى التجربة غير المباشرة ٠ وهى (١) ٠

ويجب بعـد ملاحظة الظواهر وتجربتها واختيار ثبات وصدق الفروض وتحليل البيانات وغـــير ذلك من خطوات المنهج التجريبى أن يقوم الباحث بتفسير ما يتوصل اليه من نتائج بحيث يتمشى هذا التفسير مع ماقد يجمعه من بيانات وحقائق تتعلق بالظاهرة ، كذلك يجب استناد العبـــارة المفسرة للظاهرة الى قوانين علمية ومراعاة أن تكون على مستوى اعادة اختيارها اذا تطلب الأمر ذلك ٠

وهناك أنماط من التفسير العلمى للظاهرة قد يقوم على أساس دراسة الأسباب المؤدية الى الظاهرة ، أو قد تقوم نماذج التفسير على أساس الدوافع وهذا العنصر منفصل فى التفسير السلوكى النفسى ٠ أو قـد يكون التفسير على أساس وظيفى وهـذا هو منطق الأنثروبولوجيين فى تفسير ظاهراتهم بينما يفرق علمـــاء الاجتماع بين كل نشاط اجتماعى منظم والوظيفـة التى يؤديها وأخيرا فهناك نمط من التفسير يقوم على أساس الحاجات ويستخدم فى تفسير السلوك (٢) ٠

---

(١) د ٠ محمد على محمد : المرجع السابق ص ٨٥ ٠
(٢) د ٠ زيدان الباقى : المرجع السابق ص ٣٣٧ ٠

خلاصة القول : ان المنهج التجريبى يعتبر أحد العمد الأساسية لأركان البناء المنهجى فى علم الاجتماع برغم الاعتراضات التى يثيرها البعض من عدم امكان تحقيق التجربة الاجتماعية بالانتظام الذى يحدث فى العلوم الطبيعية ، ولكن هذه الحجة قد تقلصت أهميتها بعد أن استخدم السوسيولوجيين هذا المنهج وبعد أن صاغوه بأسلوب يتلاءم مع وظيفة الدراسة الاجتماعيـة بما يحقق الى قدر ما من الدقة والموضوعية ٠

٤ ـ **منهج المسح الاجتماعى :** ظهر فكرة المسح الاجتماعى فى صورة بدائية منذ القدم ، فقد كتب هيرودوت عن سكان مصر وصفاتهم وعقائدهم ومشكلاتهم ٠ أما المسح الاجتماعى بالمفهوم الحديث فقد ظهر فى منتصف القرن الثامن عشر على يد المصلحين الاجتماعيين فى انجلترا وفرنسا أمثال جون هوارد الذى استخدم منهج المسح الاجتماعى فى دراسة السجون الانجليزية كما اختار لوبلاى الفرنسى نوعا جديدا من الدراسات الاجتماعية تعتمد على التطبيق العملى واستخدام المقابلة الشخصية والاستبيان وذلك فى دراساته عن حال العمال فى فرنسا ، كما اهتم شارلزبوت وهو من أتباع لوبلاى بدراسة الفقر فى القطاع الشرقى من لندن ، كذلك قام راونترى بدراسة مفصلة لظروف الطبقة العاملة فى مدينة يورك بانجلترا عن طريق التحقيق الشامل واستخدام منطق المقارنة (١) ٠

معنى ذلك أن المسح الشامل قد أثار انتباه رواد حركة الاصـــلاح الاجتماعى وذلك بهدف التوصـــل الى أنسب الحلول للمشكلات الملحـة فى القطاعات المختلفة بأسلوب علمى وشامل لمعرفة اجابات كافة المبحوثين بشأن ما يثيره الباحث من تساؤلات يضمها اطار الدراسة ٠ وبطبيعة الحال فان هذا الأسلوب فى البحث الاجتماعى هام ومفيد وعملى مع تطور البناء الاجتماعى ووظائفه وما ينجم عن ذلك من ظهور المشكلات ٠

وحول أهمية هذا المنهج فان بولين يونج Young تشـــير الى تلك

---

(١) د ٠ عبد الحميد لطفى : مرجع سابق ص ٣٢٩ ٠

الأهمية لاستخدام منهج المسح الاجتماعى فى البحوث الاجتماعية ، فتتحدث فى اسهاب عن الاسلوب الفنى فى الدراسات الاجتماعية وأهمية رسم خط البحث والاستعانة بالمادة التاريخية فى البحث الاجتماعى فضلا عن جانب الملاحظة الأمبريقية واستخدام الاستقصاء والمقابلة كأداة لجمع البيانات والاستفادة من المعطيات الاحصائية فى تحليل الحقائق المتاحة (١) ٠

وهكذا نتبين أهمية الاستخدام المنهجى لفكرة المسح الاجتماعى فى البحوث والدراسات الاجتماعية ، وان كان منهج المسح الشامل يحتاج الى كفاءات ممتازة من الباحثين المدربين فضلا عن الامكانيات المادية والفنية حتى تكون نتائجه وتصميماته أقرب الى حقيقة الأمر ٠

ويمر المسح الاجتماعى فى عدة مراحل : من بينها وضع الخطة للمسح بحيث تفسر الغرض منه وأدواته والمناهج المستخدمة ، وتحديد مجالاته البشرية والزمانية والمكانية مع تحديد لميزانية المسح ٠

وبعد وضع الخطة تاتى مرحلة جمع البيانات من مجتمع البحث ، وتتضمن تلك المرحلة اعداد الباحثين اللازمين واجراء كافة الاتصالات اللازمة والاشراف على أعمال الباحثين وتوجيههم ومراجعة بياناتهم ٠

والخطوة الثالثة فى المسح الاجتماعى هى تحليل البيانات حيث تتم مراجعتها أولا ثم تصنف وتوضع فى جداول تتضح فيها النسب المئوية تمهيدا لتحليلها احصائيا ٠

بعد الانتهاء من عملية التحليل الاحصائى تاتى خطوة عرض النتائج وكتابة تقرير البحث مشتملا على وجه نظر الباحث فى كل ما تم من خطوات وهل حقق البحث الهدف منه ، وهل للنتائج الرقمية دلالات احصائية والى أى مدى يمكن تعميم ما يصل اليه من نتائج ٠

وواضح من الخطوات السابقة انها تتفق والاطار العام لمنهج البحث

---

(١) Pauline V. Young : scientific social servays and Research 4th Edition, New Delhi 1937 p. 101.

العلمى اذ أنه سوف يصل الباحث الى نتائج ذات قيمة اذا اتبع الأسلوب العلمى لهذه الخطوات ومن ثم يمكن التاكيد على أنه بامكان علم الاجتماع شأنه شأن أى علم آخر أن يصل الى الهدف العلمى اذا كان له اطار منهجى واضح ومحدد ٠

٥ ـ **منهج القياس الاجتماعى** : وسيلة فى البحث الاجتماعى تتطلب معرفة المفاهيم الأساسية للظاهرة المدروسة حتى يمكن الوقوف على الأدوات المناسبة لقياسها ، ويفيد هذا المنهج فى ربط تصورات معينة عن الواقع الاجتماعى من جانب الباحث بهذا الواقع الفعلى فى أسلوب علمى دقيق ٠

وقد هوجمت أيضا فكرة القياس فى علم الاجتماع لانه يقيس أشياء متغيرة لكن قياس الظاهرة لا يكون له نتائج موضوعية الا اذا تم ذلك فى اطار النمط الثقافى الذى تنمو فيه هذه الظاهرة ، فضلا عن أن التكامل بين الأنماط التصورية والواقع المشاهد أمر على جانب كبير من الاهمية لحسن صياغة المقياس وضمان سلامة الاستخدام (١) ٠

تبدو اذن الروح العلمية فى كافة خطوات القياس الاجتماعى وابسط ملامح هذه الناحية العلمية ربط الاطار النظرى بما يحوى من تساؤلات بعضها مقياس محدد تحديدا دقيقا بالواقع الفعلى لمشاعر واتجاهات المبحوثين كما هم على أرض الواقع الاجتماعى ، فاذا ما وصل العلم الاجتماعى الى هذه الدرجة من القياس وبالطبع يستفيد بكافة أساليب الاحصاء ، فان وصول علم الاجتماع الى هذه الدرجة يؤكد بلا جدال اتجاهه العلمى والموضوعى ٠

خلاصة القول أن علم الاجتماع له نظرياته السوسيولوجية سواء التقليدية منها أو المعاصرة وهى التى تعطى هذا العلم الاطار المعرفى لكى تتم له الأصالة العلمية كاحد العلوم المستقلة والتى تسهم بدور ما فى علاج مشكلات المجتمع ، بل أن هذا الاطار النظرى للعلم يحدد له فى ذات الوقت منطقة نفوذ لايسمح بأى شوائب غير سوسيولوجية أن تتدخل فى تشكيل نون الدراسة فى مباحثه ٠

---

(١) د ٠ محمد عارف : مرجع سابق ص ١٩٣ ٠

والى جانب هذا الاطار النظرى ، فان هناك البنـــاء المنهجى للعلم وهو مكمل للبناء الاول ، فاذا كان الجانب النظرى يمثل الخلفية العلمية للعلم فان الجانب المنهجى يمثل الطريقة أو الاسلوب الأمثل لاستثمار كافة معطيـــات العلم فى تحقيق أهدافه ومراميه القريبة والبعيدة وقـــد أوضحنا فيما سبق مجموعة من القضايا المنهجية فى الدراسات السوسيولوجية فضـــلا عن الاشارة الى أهم طرق البحث الاجتماعى وأبرز مناهج الدراسة ٠

obeikandl.com